التأويل النحوي بالحذف في شعر المتنبي
من خلال شرح ابن جني الكبير المسمى بـ "الفسر"

الباحث عبد العزيز آيت الشاري
دكتوراه في اللغة العربية وآدابها
جامعة القاضي عياض
المغرب

الملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية قضية التأويل النحوي بالحذف الذي يعد ظاهرة لغوية عني العرب بها أثناء تركيب الكلام، وهي سمة أسلوبية جمالية ظهرت بشكل كبير في الشعر العربي بعامة، وفي شعر أبي الطيب المتنبي بخاصة، وقد أولاها النقاد واللغويون أهمية كبرى سعيا إلى إظهار المبررات التي تجعل هذا الشاعر أو ذاك يلجأ إلى هذا النوع من الحذف في الكلام، وما له علاقة بالمعنى الذي يسعى كل شاعر أن يظهره في شعره قصد التأثير في المتلقي العارف بأسرار اللغة العربية وسحرها البياني، وقد ركزت هذه الورقة على شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي الموسوم بالفسر وذلك لمناقشة تلقي أبي الفتح لهذه الظاهرة في شعر المتنبي، باعتباره أول مدونة تفسيرية لشعر الرجل، وهي مدونة بنى عليها باقي الشراح مؤلفاتهم في فهم وشرح شعر أبي الطيب. وقد انطلقت فيها من سؤال إشكالي مفاده: كيف يبني أبو الفتح تأويلاته النحوية وخاصة المستنبطة من مذهب البصريين إزاء هذه الظاهرة؟ وهل ينتصر للمعنى في اللغة التي يطفح بها تركيب أبي الطيب الذي يشهد ظاهرة الحذف؟.

الكلمات المفتاحية: الشعر- التركيب- التأويل- المعنى.

على سبيل التقديم:

يعتبر الحذف خصيصة أساسية من خصائص التركيب، يكثر استعماله من جملة إلى أخرى وتتنوع مظاهره، على أن " الأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف، فإنه لغو من الحديث.."[1]، ثم إن أهل العربية والعربي بخاصة لم يكن ليستعمل الحذف إذا ضر بالمعنى ولم يبينه.

ثم إن النحاة واللغويين والبلاغيين حينما حذفوا وقدروا كانوا على أصول مقررة فقاسوا النظير على النظير، واستدلوا بالحاضر على الغائب، ورأوا المحذوف في المذكور"[2]، ويقول عبد القاهر الجرجاني في حق الحذف كظاهرة نحوية و أسلوبية جمالية: " باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة..."[3]. يتبين من خلال نص عبد القاهر الجرجاني أن الحذف له أبعاد دلالية عميقة أكثر من المعاني الظاهرة التي تعترض سبيل القارئ، ودائما ما نجد أن المسكوت عنه في كل شيء يثير النفس البشرية التواقة لمعرفة الأسرار. فالحذف يؤدي " بالضرورة إلى دخول المحذوف دائرة الإبهام، وهو ما يؤدي إلى حصول ألم للنفس لجهلها به، فإذا التفتت إلى القرينة تفطنت له، فيحصل لها اللذة بالعلم، واللذة الحاصلة بعد الألم، أقوى من اللذة الحاصلة ابتداء."[4]

والحال أن النحاة العرب حينما حذفوا وقدروا فهم متفقون على أن النحو ينبغي " أن يربط البنية العميقة ببنية السطح، والبنية العميقة تمثل العملية العقلية في اللغة.."[5].

هذا ويحمل شعر المتنبي ظاهرة الحذف في كثير من أبياته داخل الديوان، وقد علق عليها أبو الفتح وبين أوجهه وما يحمله من معان متباينة.

1. حذف المبتدأ:

المبتدأ ركن أساسي في بناء الجملة الإسمية، وهو عمدة في الكلام، وقد ورد حذفه في كلام العرب شعرا ونثرا، ورأوا في حذفه مناسبة للمعنى الذي يقصدونه، وكان ذلك وفق ضوابط وقوانين وضعها النحاة والتي تم استنباطها من كلامهم، فحددوا مواضع الحذف وبينوا أسبابه، الوجوبية والجوازية. أما فيما يتعلق بشعر المتنبي فقد جاء حذف المبتدأ عنده كثيرا.

قال المتنبي " وقد حضر مجلس سيف الدولة، وبين يديه نَارَنْجٌ وطَلْعٌ، وهو يمتحنُ الفرسانَ، فقال سيف الدولة لابنِ حَنَشٍ المِصِّيصِيِّ: لا تَتَوَهّمْ هذا للشربِ، وإنما هذا للشم."[6]

شديدُ البُعدِ من شُربِ الشَّمُولِ * تُرُنْجُ الهندِ أو طَلَعُ النخيلِ**[7]

قال ابن جني: " (...)، ورفع « شديدُ البعدِ »؛ لأنه خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: أنت شديد البعد، ورفع « تُرُنْجُ الهند» بالابتداء، كأنه قال: بين يديك، أو في مجلسك ترنجُ الهند، إلاّ أنّه حذف من الأول المبتدأ ومن الثاني الخبر؛ لأنه مُشَاهَدٌ، فذَكَرَ الحال على ما أضمره / كما تقول: إذا رأيت رجلاً قد سدّد سهماً، ثم سمعت صوتاً: القرطاسَ، أي: السهمُ أصاب القِرطاسَ، وكما تقول للقادم من سفره: خيرَ مقدمٍ فتنصبُ؛ لأنك تريد: قَدِمْتَ خيرَ مقدَمٍ ، ويجوز أن ترفع، فتقول: خيرُ مقدمٍ، أي: مقدمُك خيرُ مقدم، فيجوزُ إضمارُ هذا كله؛ لأن في الحال دليلاً عليه، فإن قيل: وما في إِخْبَارِه عما في مجلسه، وهو بحضرته من الفائدة؟ وهل كان يشُكُّ في ذلك، فيجوزُ إخباره عنهُ؟ قيل: إنما ذلك ثناء عليه، فيقول له: أنت شديد البعد من شُربِ الشَّمولِ، وإن كان بين يديك ما يحضُرُ في أكثر الأمر للشُّربِ، فأثنى عليه ونفى الظِّنَّةَ عنه، فجرى هذا مُجرى قولك للرجل الذي لا يُشَكُّ

في فضله وشَرَفِهِ: أنت فاضلٌ، وأنت شريفٌ، لما في ذلك من وصفه وتقريظه، وتعديد محاسنه. { وقوله: أو أنت طلعُ النخيلِ، وهو يريد: وطلْعُ؛ لأنه أجرى أو مُجرى الواو.}"[8].

لا يُفهم الكلام إلا بالربط بين المبتدأ والخبر، فلا يمكن أن يستغني الواحد عن الآخر، وهما في محل رفعٍ أبداً، والمبتدأ يشترك مع الفاعل في الحديث وإن كان الفرق بينهما فيه – أي في الحديث – ذلك أن الفاعل مبتدأٌ بالحديث قبله، نحو: ينطلق زيدٌ، فالحديث بَدأ بالانطلاق، ثم أتى بعده زيد " الفاعل " المحدث عنه بالانطلاق، بعد ذكر الحديث، أما المبتدأُ يبتدأُ فيه بالاسم المحدث عنه قبل الحديث، نحو: زيدٌ منطلقٌ.." [9].

وذهب النحويون إلى أن المبتدأ يجوز حذفه إذا دلَّ عليه دليلٌ، كما جُوِّز حذف خبره إذا دلَّت الحال عليه "[10]، ولم يخرج ابن جني في هذا السياق عن هذه القاعدة النحوية التي تحكم المبتدأ والخبر في حذفهما حيال إتيان المتكلم بقرينة دالة على ذلك الحذف بقوله في بيت أبي الطيب الذي حُذف منه المبتدأ في شطره الأول، والخبر في شطره الثاني: " **إلاّ أنّه حذف من الأول المبتدأ ومن الثاني الخبر؛ لأنه مُشَاهَدٌ، فذَكَرَ الحال على ما أضمره" كما قال أيضا: " فيجوزُ إضمارُ هذا كله؛ لأن في الحال دليلاً عليه "**[11].

ومن أمثلة ذلك ما جاء في الكتاب، يقول سيبويه: " وسمعنا بعض العرب الموثوق به، يقال له: «كيفَ أصبحتَ؟»، فيقول: «حمدُ الله وثناءٌ عليه» كأنه يحمله على مضمرٍ في نيّته، كأنه يقول: «أمري، [وشأني] حمدُ الله وثناءٌ عليه » ... " [12]، والنية المضمرة نفسها هي التي كتمها أبو الطيب في نظر أبي الفتح من خلال أمثلته التي استدل فيها على حذف المبتدأ والخبر في النص أعلاه، بحيث حذف ضمير المخاطب " أنتَ " وهو مبتدأٌ من جملة " شديد البُعد"، كما حذفت العبارة التالية: " بين يديك " وهي خبر: " تُرُنجُ الهندِ ".

على أن هذه التقديرات التي استدل عليها أبو الفتح في حذف المبتدأ والخبر من بيت أبي الطيب جعلت منتقديه يحوِّرون معناه على أوجه عدة على الرغم من وضوحه في نظرهم، ولكن اجتهاد أبي الفتح في الحديث عن الاضمار والحذف اللذين يبينان المعنى أكثر، لم يستسغه الشراح وراحوا يطولون في فسر البيت من حيث المعنى والاعراب.

فقال أبو العلاء في معجز أحمد: " (...)، يقول: هذا الطلع والأترُجُ بعيد من الشرب عليه، لمْ يُحضَرْ لذلك. قوله: «تُرُنجُ الهند» مبتدأٌ، و « شديد البُعدِ» خبره مقدم عليه.

وقال ابن جني: في الكلام حذف. فقوله «شديد البُعدِ» خبر ابتداء محذوف، أي أنت شديد البعد. وقوله: « تُرُنجُ الهند »: مبتدأ، خبره محذوف: أي عندك، أو في مجلسك، أو بين يديك « تُرُنجُ الهند »، وعلى الوجه الأول لا حذف فيه، وهو أولى و «أو» في قوله: «أو طلع النخيل» بمعنى الواو، كما قيل في قوله تعالى (أو يزِيدونَ). "[13].

وأضاف في اللامع العزيزي: " (...)، وقدم الخبر في قوله شديدُ البعد، ولو جعل النصف الآخر مكان الأول لكان حسنا، وكلا الوجهين سائغ. "[14].

ما ذهب إليه الشيخُ أبو العلاء من تقديم الخبر على المبتدأ في بيت المتنبي صائب ولن يُختلف معه من الناحية الاعرابية، لما كان التقديم والتأخير خَصِيصتان من خصائصهما، ثم إن المعري لم يختلف مع الشيخ أبي الفتح في اعتبار " أو " جرت مجرى " الواو " في " ترنج الهند أو طلع النخيل "، ومن ثمة استقامة المعنى عند كل من الشيخين، غير أن تفسير أبي الفتح للمعنى الضمني في هذا البيت أبلغ من تفسير الشيخ أبي العلاء، إذا ما اعتبرنا منزلة سيف الدولة عند شاعره أبي الطيب الذي رفع من شأنه في حضرة الفرسان وهم

يستعدون لخوض غمار الحرب، بحيث نفى عنه شرب الخمر في تلك اللحظات لغاية في نفسيتهما معا يعرفها الشاعر والأمير، أو قل حتى الفرسان معهما، ولذلك صرح سيف الدولة على أن ترنج الهند للشم لا للشرب لكي لا يتراخى هؤلاء الفرسان ظانين أن اللحظة لحظة انتصار سابق أوانه.

وقال ابن فورجة: " غير أن هذا البيتَ لا حاجةَ به إلى هذا التعسف والتمحل العظيمين البعيدين عن كل خاطرٍ. وإنما تُرنجُ الهند مُبتدأٌ. وشديد البُعدِ خبرهُ، قدَّم الخبر على المبتدأ، وإن شئت كان شديدُ البعدِ مبتدأ، وترنج الهند خبراً، إذ كان كلاهما معرفتين، أيهما كان المبتدأ جازَ. والمعنى مفهوم إذا قلت: تُرنجُ الهند شديد البُعد من شُرب الخمر، وإن شئت: كان تُرنج الهند خبرَ ابتداءٍ محذوفٍ. كأنه يقول: هذا الأترجُ، وخبر المبتدأ: شديدُ البُعد.

وإنما في هذا البيت أمران مما يبعدهُ على الخواطر غيرَ ما ذهبَ إليه الشيخ أبو الفتح. والخطبُ في كليهما سهلٌ. فأحدهما أنه حذف من الكلام ما تدلُّ عليه الحال، وذاك أنه يريد: شديد البعد من شرب الخمر ترنجُ الهند عندك وإذا حضرك، وحذف الظروف إذا دل عليها الكلامُ كثير..

والثاني قوله: « من شرب الشمول»، إذ كان الأترنجُ لا يُشرب، وإنما يشرب الناس عليه الخمرَ، وما كلَّف الشيخَ أبا الفتح إيراد هذا الكلام الطويل، وتسَنُّمَ هذه العِقابِ الشاقةِ من النحو في طلب المعنى غيرُ هذا. ولو أنعمَ النظرَ لما عزبَ عنه هذا المقدارُ. ولكن ارتكب تفسيرا فسح له في ميدان الاعراب، فركض فيه، ولم يلتفتْ إلى ما وراءه. وأنت تقول: أعجبني دقُّ الثوبِ. وعجِبتُ من قضم هذا الشعيرِ، وهالني سماع هذا الحديث. وقد تعلم أنَّ القصَّارَ دقَّ الثوبَ، وأن الدابة قضمت الشعير، وأنك أنت سمعت الخبر. فأضفت المصدر إلى المفعول، فإذا كان جائزا، جاز أن تقول: تُرنج الهند بعيدٌ عن شرب الخمر. يريد: شُربَ الناس عليه الخمرَ.. وأيضا فليس المحذوف مع هذا الشرح إلا قولك عليه، إذ لو تأتى له في الوزن أن يقول: شديدُ البعد من شرب الشمول، عليه تُرنجُ الهند لفهَّمهُ، وازداد المعنى وضوحا...، وأيضا فأي حاجة ماسة إلى قولك: عندكَ أو بحضورك؟ وقد أتى بعده:

ولكنْ كل شيء فيه طيبٌ *** لدَيكَ من الدقيقِ إلى الجليل

ألا تراه قد دلّكَ بقوله: لديكَ، على أن هذا الأُترجَ الذي حضرك لم يحضُرْكَ لشربٍ عليه؟ ولكن كلُّ شيءٍ فيه طيبٌ يَحْضُرُكَ، ويكونُ عندكَ. "[15].

لم يأت ابن فورجة بجديد في هذا الكلام الطويل أكثر من إطالة أبي الفتح، وإنما أخذ تفسير شيخه أبي العلاء ففسره على أنه قلبَ رأي أبي الفتح وأعاد فيه النظر، وإنما هي أمثلة أتى بها للتدليل على أن المتنبي قدم الخبر على المبتدأ ليس إلا، وأن المعنى واضح لا يحتاج إلى كل هذا التمحل في نظره، ولم يحاول أيضا أن يحلل الغاية من قول المتنبي هذا البيت إذ كان معناه سهلا وإعرابه يسيرا؟!.

2. حذف الخبر جوازا:

حَذُّ الخبر كما يقول ابن جني في اللمع: "كل ما أسندته إلى المبتدأ أو حدثت به عنه، وذلك على ضربين مفرد وجملة."[16]، وكما حذفت العرب المبتدأ كذلك حذفت الخبر، ودون النحاة المواقع التي يحذف فيها، وحذف الخبر من الأساليب التي يعتمد عليها المتنبي كثيرا في شعره.

قال المتنبي " لما أَوْقَعَ سيف الدولة ببني عُقَيل وقُشَيْرٍ والعَجْلانِ

وبني كلابٍ، حيث عاثوا في بلده، وتألبوا، وتحالفوا عليه، يذكر إجفالهم بين يديه وظَفَره بهم/ وله خبر طويل":

وَكَانَ بَنُو كِلاَبٍ حَيْثُ كَعْبٌ *** فَخَافُوا أَنْ يَصِيرُوا حَيْثُ صَارُوا[17]

قال ابن جني: " «كعبٌ» مرفوع بالابتداء، وخبره محذوف، والتقدير: حيث كعبٌ كائنةٌ أو حاصلةٌ، فحذف الخبر للعلم به، إذ كانت حيث لا تضاف إلاّ إلى الجمل..، وقوله: وكانت حيث كعبٌ، أي: كانت مُضَامَّةً لها، فلما رأوا سيف الدولة خشوا أن يهربوا، فيهلكهم سيف الدولة، أو تقتلهم القفار بالعطش ونحوه كما هلكت كعبٌ."[18].

وقال أيضاً في قول أبي الطيب " يمدح الحسينَ بنَ إسحاق التنوخي "[19]:

وَقَفْنَا وَمِمَّا زَاد بَثّاً وُقُوفُنَا *** فَرِيقَيْ هَوًى: مِنَّا مشُوقٌ وَشَائِقُ[20]

" «فريقي هوًى»: نصبٌ على الحال من النون والألف في وقوفنا، وتقديره: منّا مشوقٌ، ومِنَّا شَائِقٌ، فحذف الخبر الثاني للعلم به، كما قال تعالى: ﴿ مِنْها قَائِمٌ وحَصِيدٌ﴾[21]، أي: ومنها حصيدٌ.

يجوز حذف خبر المبتدأ إذا كان معلوما في سياق الكلام، كما ذهب إلى ذلك النحويون[22] نحو قولك: (زيدٌ)، في جواب (مَنْ عندك ؟)، ومن ذلك أيضًا قولك: (خَرَجْتُ فإذا السبعُ)[23] أي: (فإذا السبعُ حاضرٌ).

ومنه قول ذي الرمة:

فَيَا ظَبْيَةَ الوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلاجِلٍ *** وَبَيْنَ النَّقَا آأَنْتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ[24]

التقدير: (آأنت الظبية أم أمُّ سالمٍ)[25]، فحذف الخبر للعلم به.

وقد نحا ابن جني منحى النحويين في مسألة جواز حذف الخبر إذا دل عليه دليل، كما بين في النص أعلاه، وقدّر الخبر المحذوف في بيت أبي الطيب بقوله: (حيث كعبٌ كائنة أو حاصلة) ليكون بذلك قد التفت إلى المسكوت عنه في هذا البيت، ذلك أن المحذوف يكون أحيانا أبلغ مما يذكر في الكلام. فقوله كائنة أو حاصلة يوحي بما يحمله ذلك المكان في نفسية الممدوح سيف الدولة حيث هلك فيه كعب، ونفس المصير ينتظر بني كلاب في المكان نفسه. لما كانت بنو كلاب " تحت ظل الممدوح، وفي ذُرَاهُ مع كعب هذه، فخافت أن تصير بمنزلة بني كعب قد عُدَّت في الأعداء، وخشيت أن تُطرد كما طُردتْ كعبٌ."[26]

3. حذف المفعول به:

المفعول به هو ما وقع عليه فعل الفاعل، ويصفه النحاة بأنه فضلة. "[27]، وكونه فضلة ليس معناه أنه خارج عن معنى التركيب الذي وجد فيه، وإنما خارج عن المنظومة الإسنادية، أي أنه لا يقع مسندا أو مسندا إليه. و نلمس حالة منها في شرح ابن جني لقوله:

وَأَرْحَمُ أَقْوَامًا مِنَ العِيِّ وَالْغَبَا *** وَأَعْذِرُ فِي بُغْضٍ لأَنَّهُمُ ضِدُّ[28]

يقول أبو الفتح: " وقوله: وأعذر، أي: وأعذرهم، فحذف المفعول، كقوله تعالى: ﴿ وأُوتيتَ مِنْ كلِّ شيءٍ﴾[29]، أي: من كل شيء شيئا، وهو كثير في القرآن والشعر."[30].

وقال في شرح قول أبي الطيب المتنبي أيضًا:

إِنْ اسْتَحْسَنْتَ وَهوَ عَلى بِسَاطٍ *** فَأَحْسَنُ مَا يَكونُ عَلَى الرِّجَالِ[31]

" أراد إن استحسنته، فحذف الهاء وهي مفعولة، قال تعالى: ﴿ وأُوتيتَ مِنْ كلِّ شيءٍ﴾[32]، أي: وأوتيت من كل شيء شيئا، وأنشدني أبو علي للحطيئة[33]:

مُنَعَّمَةٌ تَصُونُ إِلَيْكَ مِنْهَا * كَصَوْنِكَ مِنْ رِدَاءٍ شَرْعَبِيّ**

أراد تصون حديثها."[34].

ذكر النحويون أن المفعول به يحذف في كلام العرب شعرا ونثرا إذا دل عليه دليل لأنه فضلة، يقول ابن يعيش: " المفعول به وكل المنصوبات فضلة، يجوز الاستغناء عنها، اعلم أنه قدم الكلام في الإعراب على المرفوعات لأنها اللوازم للجملة والعمدة فيها، والتي لا تخلو منها، وما عداها فضلة يستقل الكلام دونها."[35].

ويذهب الشيخ خالد الأزهري في شرح التصريح على التوضيح إلى أنه " يجوز حذف المفعول به لغرض إما لفظي كتناسب الفواصل، والمراد بها رؤوس الآي، وذلك نحو " ما ودعك ربك وما قلى" والأصل وما قلاك، فحذف المفعول ليناسب سجى والأولى...، (وكالإيجاز والاختصار وذلك في نحو (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) والأصل فإن لم تفعلوه ولن تفعلوه أي: الإتيان بسورة من مثله، وإما لغرض معنوي كالاحتقار نحو (كتب الله لأغلبن) أي الكافرين فحذف المفعول لاحتقاره.."[36].

في مقابل ذلك يرى النحاة أن المفعول به يمتنع حذفه في الحالات التالية[37]:

- إذا ناب عن الفاعل، لأنه صار عمدة الكلام.
- إذا وقع متعجبا منه نحو: ما أحسن زيدا.
- إذا كان محصورا كما في: ما أخذت إلا الكتاب.
- إذا حذف عامله نحو: خيرا لنا وشرا لهم.

ويرى ابن جني حذف المفعول به كثيرا إذا دل عليه دليل، ولذلك قال: " وهو كثير في القرآن والشعر.". وأرى أن حذف المفعول به يعتبر ميزة في الكلام العادي أو الأدبي نظرا لما يحققه من الايجاز والتكثيف والاقتصاد في القول بعيدا عن الاسراف والغلو.

4. حذف "أن " الناصبة:

قال ابن جني في شرح قول المتنبي: { البسيط }

تَوَقَّهُ فإذا ما شِئت تَبْلُوَه * فكُنْ مُعَادِيه أو كُنْ له نَشَبَا[38]**

" نصب تبلوه بأن مضمرة، والتقدير: أن تبلوه، فحذفها بعد أن قدرها ظاهرة، وبقي عملها بحاله. "[39].

اختلف البصريون والكوفيون في قضية حذف أن الناصبة، فالكوفيون يرون أنَّ " أن " تعمل ولو حذفت، بينما يرى البصريون أنها لا تعمل إن حذفت "[40]. وقد احتج الكوفيون بما جاء به الشعر العربي كقول طرفة بن العبد[41]:

ألا أيهذا الزاجريُّ أحضرَ الوغى *** وأن أشهدَ اللذات هل أنت مُخلدي

فنصب " أحضرَ" لأن التقدير فيه: أن أحضر فحذفها، وأعملها مع الحذف.

أما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: الدليل على أنها لا يجوز إعمالها مع الحذف أنها حرف نصب من عوامل الأفعال، وعوامل الأفعال ضعيفة، فينبغي ألا تعمل مع الحذف من غير بدل، والذي يدل على ذلك، أن " أن " المشددة التي تنصب الأسماء لا تعمل مع الحذف، وإذا كانت أن المشددة لا تعمل مع الحذف فإن الخفيفة أولى ألا تعمل."[42]

ويظهر من خلال بيت أبي الطيب المتنبي أنه قد حذفها وأعملها على مذهب أهل الكوفة، وأشار ابن جني بأنه أعملها دون أن يخالفه سيرا على مذهب أصحابه من البصريين. ومثله أشار صاحب التبيان في قول أبي الطيب:

وقبل يرى من جوده ما رأيته * ويسمعَ فيه ما سمعتَ من العدل**

قال العكبري: " أراد قبل أن يرى فحذفها وأعملها "[43].

5. حذف (كان):

قال ابن جني في قول أبي الطيب المتنبي:

يَا مَنْ يُبَدِّلُ كُلَّ وَقْتٍ حُلَّةً * أنِّي رَضِيتَ بِحُلَّةٍ لاَ تُنْزَعُ[44]**

" أي: يا من كان يبدّل، فحذف (كان)، وهو يريدها. هذا على قول من قال في قوله تعالى: ﴿ واتبعوا ما تتْلوا الشياطين على ملك سليمان﴾[45] أي: (ما كانت تتلو)، فحذفت (كانت). وأما أهل الحذق بالعربيّة فعندهم أنّ الله تعالى أتى بلفظ فعل الحال على الحكاية، كما قال الشاعر:

جَارِيَةٌ فِي رَمضَانَ المَاضِي

تُقَطِّعُ الحَدِيثَ بِالإِيماضِ[46]

حكى حالها في الوقت، فكذلك حكى المتنبي ما كان يأتيه من تبديل الحلل حينئذٍ، فجاء بلفظ فعل الحال حكايةً."[47].

ذهب النحويون[48] إلى أن (كان) تحذف في مواضع من الكلام، "، وذكر ابن هشام في أوضح المسالك[49] أن كان يجوز حذفها في الكلام، وأن حذفها يقع على أربعة أوجه وهي:

الأول: أن تحذف مع اسمها، ويبقى الخبر، ومنه قول النابغة الذبياني[50]:

حَدِبَتْ عَلَيَّ بُطُونُ ضِنَّةَ كُلُّهَا *** إنْ ظَالِماً فِيهِمْ وإنْ مَظْلُوما

تقديره: (إنْ كنتُ ظالماً فيهم، وإن كنتُ مظلوماً).

ومن ذلك أيضاً: (إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، وإن سيفاً فسيفٌ).

ومن ذلك أيضاً قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: (اِلْتَمِسْ ولَو خاتماً من حديدٍ)[51]. تقديره:

(اِلتمِسْ شيئاً ولو كان ما تلتمسه خاتماً من حديدٍ).

الثاني: أن تحذف مع خبرها، ويبقى الاسم، وهو ضعيفٌ، مثل قولهم: (ألاَ طَعَامَ ولَو تَمْرٌ). قدّره سيبويه[52]: (ولو يكون عندنا تمرٌ).

الثالث: أن تحذف وحدها، ويبقى اسمها وخبرها، ويكثر ذلك بعد (أنْ) المصدريّة، إذا عوض من (كان) (ما)، كقول العبّاس بن مرداس السلميّ[53]:

أَبَا خُرَاشَةَ أَما أَنْتَ ذَا نَفَرٍ *** فَإِنَّ قَوْمِيَ لَمْ تَأْكُلُهُمْ الضَّبُعُ

التقدير: (لأنْ كنتَ ذا نفرٍ فخرتَ)، فحذف حرف الجر جوازًا، ثم حذف (كان)، وأبدل منها (ما)، ثم أدغم النون الساكنة في الميم، فانفصل الضمير المرفوع المتصل، فصار: (أمّا أنت)54.

الرابع: أن تحذف مع معموليها، وذلك بعد (إنْ) الشرطية، في قولهم: (افعلْ هذا إمَّا لا)[55]، أي: إن كنت لا تفعل غيره.

ويرى ابن جني أيضاً كالجمهور أنّ كان مع اسمها قد تحذف، ومن ثمّ قال في بيت أبي الطيّب المتنبي:

يَا مَنْ يُبَدِّلُ كُلَّ وَقْتٍ حُلَّةً

" أي: (يا من كان يبدّل)، فحذف (كان)، وهو يريدها. ويقول أيضا: " وقولهم: (المرء مقتولٌ بما قَتَلَ به، إنْ سيفاً فسيفٌ، وإنْ خنجرًا فخنجرٌ) أي: إن كان الذي قتل به سيفاً، فالذي يُقتل به سيفٌ، فـ(كان) واسمها وإن لم تكن مستقلةً، فإنها تُعتدّ اعتداد الجملة"[56].

على سبيل الختام:

نخلص مما سبق أن ظاهرة الحذف ظاهرة نحوية اعتادت العرب على توظيفها في كلاماتهم، لأن حذف كلمة من تركيب والإبقاء على ما يدل عليها لا يضر المعنى بل يزيده بلاغة وقوة في التأثير كما جال على لسان النحويين والبلاغيين العرب، وهذا ما حدا بأبي الطيب إلى استعماله في كثير من شعره منه ما تناولناه بالدرس والتحليل، وخلصت الدراسة إلى أن الشاعر المتنبي يعتبر بحق شاعرا هضم أسرار العربية قبل الدفاع عنها وعن شؤون العرب السياسية والثقافية والحضارية ليتصدر قائمة أكثر الشعراء دراسة ونقدا وهو الصائح المحكي والآخر الصدى كما جاء في شعره، ومما جعل شعره يظهر ويوضع موضع نقاش أولا انتشاره، وثانيا فمه من قبل الشراح الفنيين واللغويين، أولهم لغوي وفيلسوف العربية أبو الفتح عثمان بن جني الذي سخر حياته لفهم هذه اللغة تنظيرا وتطبيقا.

الهوامش:

1 – ابن الأثير (ضياء الدين (ت 637هـ)، " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة (د.ت). 2/ 279.

2 – علي النجدي ناصف، من قضايا اللغة والنحو، مكتبة نهضة مصر– القاهرة، 1957. ص 92.

3 – عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر – مكتبة الخانجي – القاهرة، 1984م.ص 170.

4 – محمد عبد المطلب، البلاغة العربية: قراءة مكتبة لبنان ناشرون– بيروت، ط1، 1997م. ص 221.

5 – عبده الراجحي، " النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج. دار النهضة العربية، 1979م ص 151.

6 – – ابن جني: الفسر، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، حققه وقدم له: الدكتور رضا رجب، ط1، 2004:2/ 800.

7 – البيت في ديوانه، ص 262.

8 –الفسر:2/ 800– 801.

9 – ابن السراج، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1405 هـ / 1985 م:1/ 58.

10 – سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر (ت180هـ)، الكتاب تحقيق: الدكتور إميل بديع يعقوب، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1420– 1999م 319/1 . "مغي اللبيب عن كتب الأعاريب" ابن هشام الأنصاري، (ت 761هـ)، تحقيق الدكتور محمد عبد اللطيف الخطيب، السلسلة التراثية 21، ص 822 . 824 أوضح المسالك 111.

11 – الفسر:2/ 800.

12 – الكتاب 319/1 . 321.

13 – المعري (أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرّي معجز أحمد (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي)، تحقيق: د/ عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة:1/ 288.

14– المعري (أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرّي (ت 449 هـ):اللامع العزيزي، (شرح ديوان المتنبي)، تحقيق محمد سعيد المولوي، 2/ 936.

15– ابن فورجة (البروجرديّ، أبي علي محمد بن حمد بن فورجة البروجرديّ (ت 455 هـ): الفتح على أبي الفتح، أو شرح مشكلات ديوان المتنبي ردّا على شرح أبي عثمان فيما واخذ به المتنبي، حققه وقدم له وأعد فهارسه د. رضا رجب. ص 199– 200– 201.

16 – ابن جني، اللمع في العربية تحقيق: سميح أبو مغلي، دار مجدلاوي للنشر، عمان، 1988م. ص 26.

17 – البيت في ديوانه، ص 158، والفسر:2/ 55، ، ومعجز أحمد:3/ 464، والبرقوقي: 202/2.

18 – الفسر:2/ 63.

19 – الفسر:2/ 538، ومعجز أحمد:1/ 269، والبرقوقي:3/ 82.

20 – البيت في ديوانه، ص 227.

21 – سورة هود، الآية 100.

22 – شرح الألفية لابن الناظم ص 118، المغني ص 824 . 826، أوضح المسالك، ص 113.

23 – شرح الألفية لابن الناظم 119.

24 – بيت من البحر الطويل، لذي الرمة في ديوانه، ج2، ص767.

25 – أبو علي الفارسي ت 377ه شرح الأبيات المشكلة الإعراب المسمى إيضاح الشعر، حققه الدكتور حسن هنداوي، دار القلم دمشق ط1، 1987م ص 342.

26 اللامع العزيزي:1/ 493.

27 – ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك"، تحقيق: الشيخ محي الدين عبد الحميد، دار التراث القاهرة، ط 20، 1980م.:1/ 663.

28 – البيت في ديوانه، ص 119.

29 سورة النمل، الآية: 23.

30 – الفسر:1/ ص 995.

31 – البيت في ديوانه، ص 263.

32 – سورة النمل، الآية: 23.

33 – البيت للحطيئة في ديوانه، ص 138.

34 – الفسر:2/ 808.

35 – شرح المفصل، لابن يعيش:1/ 74.

36 – خالد عبد الله الأزهري (ت 905) شرح التصريح على التوضيح، ، ، دار إحياء الكتب العربية. 314/1.

37 – زين الدين الخويسكي، الجملة الفعلية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر 1987م. ص195، نقلا عن همع الهوامع:1/ 167.

38 – البيت في ديوانه، ص 53

39 – الفسر:1/ 385، 386.

40 – أبو البركات كمال الدين بن عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري، الانصاف في مسائل الخلاف، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، 1968م. المسألة 77، ج2، ص 563.

41 – ديوانه، ص 31.

42 – الانصاف في مسائل الخلاف:2/ 263.

43 – التبيان:3/ 50.

44 – البيت في ديوانه، 210.

45 – سورة البقرة، الآية 102.

46 – البيتان لرؤبة في ملحق ديوانه، ص 176.

47 – الفسر:2/ 415.

48 شرح الألفية لابن عقيل1/234 . 238، همع الهوامع1/382. 387.

49 – أوضح المسالك، ص 132– 137.

50 – بيت من البحر الكامل، للنابغة في: ديوانه: ص 103.

51 – الحديث رواه البخاري في صحيحه.

52 – الكتاب1/269

53 بيت من البحر البسيط، للعباس بن مرداس في: ديوانه: 106.

54 – شرح الألفية لابن عقيل 1/237 . 238.

55 أوضح المسالك 137

56 ابن جني الخصائص 2/379.